آدم وحواء

امرأة أهدتهم الحياة
وامرأة أعطتهم الحب
وثالثة تركت في القلب حرفاً واحداً: «حاء الحزن»
هم الآن في قمة الكتابة والفن
مشدودون لامرأة ما..
ومسكونون بطيف أيامهم البعيدة
وحين نسألهم عن «نون النسوة»
يتحدثون بحنين طاغٍ..
ووجع لا تنطفئ ناره
كأنهم يخاطبون أزمنة.. وأمكنةً..
ووجوهاً تطاردهم..
ولا تغيب

شاعر كلما رق الهوى أدرك معنى الأسى... يتوق دائماً إلى الذكريات، وله معها وقفات وآهات وأحزان... جودت بك حيدر في عزلته كان يحلم بحب كالفرات أمواجاً تتصاعد... فطال صبره وأعطته الحياة بعض الأحلام، لكنها سرقت منه وهج الحب، فحبه الأبدي لم يستمر طويلاً حيث خطف الموت مليحته وكتب فيها الرثاء بعدما كان قد أمطرها برسائل الحب والغنج والحنين. امرأة عشقه كانت زوجته وملهمة أشعاره أيضاً كانت زوجته. جودت حيدر، احترم المرأة وكانت له صولات وجولات، إنما ضمن الاحترام المتبادل والترفع عن الشهوات والتعالي عن اقتراف المعاصي.

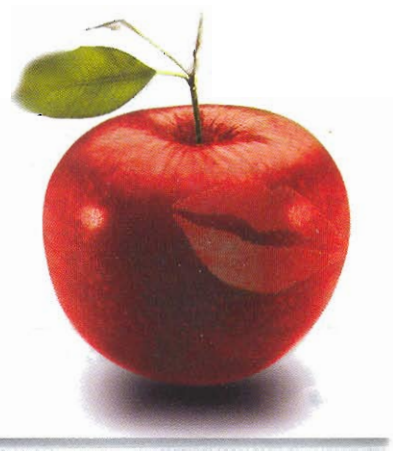

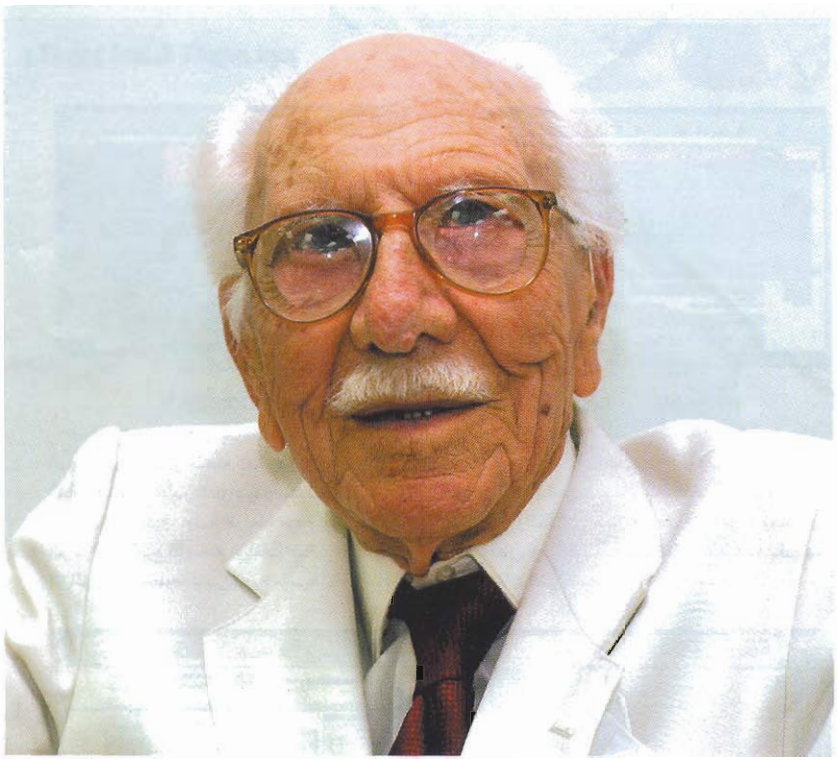

على أعتاب الـ ١٠٠ وفياً لامرأة واحدة

الشاعر جودت حيدر

.. من وحي «مس كليفلند»!

بيروت: حنان حمود - تصوير: محمد عزاقير

❖ هل تذكر المرأة الأولى جدتك؟ وما تأثيرها في مسيرة حياتك؟

❖❖ لم أعِ حياة جدتي فقد توفيت دون أن أدركها، في سن الثامنة تركت مدينتي بعلبك بعد وفاة والدي والتحقت بوالدتي وإخوتي الذين نفاهم الأتراك إلى الأناضول فعرفت حينها طعم النفي والاضطهاد وأنا لا أزال في طور الطفولة، لقد عشت في ظل الحكم العثماني والانتداب الفرنسي وعهد الاستقلال ودخلت في القرن الحادي والعشرين بهمة كبيرة، لقد خبرت الحياة حلوها ومرها، وأقول هنا:

«إن بلغت ذراي اليوم
سأجتاز حدود الزمن
لأكتب اسمي على جدار الغد...
أيها الآتون، تذكروا أن جدران الماضي
ستبقى أبداً
بيت الزمان»

❖ لندخل الآن إلى صلب الموضوع... ونتعرف على ملهمة الشاعر. من كانت عروس قصائدك وعبقر وحيك؟ من هي الأقرب اليك منهن؟

❖❖ إنها زوجتي، طبعاً قبل أن أتعرف اليها كانت لي مشاغبات في إطار الاحترام. فأنا لغاية الآن ورغم كبري ما زلت أحترم المرأة وأعتبرها نصف الوجود.

❖ ما حكايتك مع زوجتك؟ كيف تم النصيب؟

❖❖ عام ١٩٢٨ عدت من الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن أنهيت دراستي الجامعية في «دنتون- تكساس» متخصصاً في التربية والتعليم، وما أن وصلت بيروت حتى تلقيت نبأ وفاة أحد أقاربي. مشيت مسرعاً إلى بعلبك لأشارك في المأتم الكبير، والتقيت الكثير والكثيرات من أقاربي الدين ظهر على وجوههم الحزن والأسى، ولفتت نظري في تلك الأيام القليلة التي يغمرها التفكير بالموت والحياة، وتغشى الوجوه فيها مسحة من الحزن الصامت العميق. فتاة من أقاربي زادها الحزن جمالاً، وعرفت أنها مليحة بنت مخيبر بك حيدر ابن الفقيد سعيد باشا، فبدأت ترتسم في خيالي صور.

❖ وكيف تم التعارف؟

❖❖ أحسست حينها أنني قد وقعت في شباك عينين تمثلان الذكاء والبراءة والطهارة، واقتربت من تحقيق أمل كان يراودني دائماً كما يراود كل شاب. وهو أن تكون لي زوجة وبيت وأولاد.. ولم لا أفكر بمليحة؟ ولم لا أعمل على تقوية أواصر هذا الإعجاب؟ بل لم لا أصارحها بما هي الفؤاد من شعور حلو نحوها؟

❖ وكيف سارت الأمور؟

❖❖ فعلاً... بدأت الأمور تأخذ منحى جدياً سريعاً، فما أن بدأت بالتلميح بفكرة الزواج حتى لقيت من مليحتي جواباً نقلته إلى قلبي عيناها لتختصرا الطريق، ومضت أيام هنيئة مليئة بالآمال الحلوة العذبة، وانتقلت الأمور لترسم أمامنا صورة الأولاد يملأون بيتنا حبوراً، يا لها من أيام جميلة على قصرها، وما أكثر عطاءها، وما أروع ثمارها، كانت حصيلة تلك الأيام القليلة ارتباط قلبين، وتوافق روحين، بآمال مفعمة تكبر وتعذب وتحلو، ولم يبق إلاّ أن أهيئ النفس والجو للانتقال إلى بيت الحب الحقيقي، بيت الزوجية الذي يخيم على أجوائه الحب والحنان والفكر والعاطفة.

عينت مديراً لكلية النجاح في «نابلس» في فلسطين، وما فارقت بيروت، حتى سكنت «مليحة» القلب والروح والعقل. مضت السنة الدراسية في نابلس وكنت أعيش أوقاتي الخاصة مع الحبيبة الغالية مليحة التي في كل ليلة ونهار كنت أرسم ألف صورة للوصول إلى الزواج بها والعيش بقربها، وفي عام ١٩٣٢ تحقق الحلم فتزوجت مليحتي الزوجة الوفية والصديقة المخلصة ورفيقة الدرب والنضال في الحياة، وأم الأولاد الذين أرى في كل منهم نفسي، عام ١٩٣٣ ولد ابننا البكر بسام... وما مضت سنوات حتى امتلأ بيتنا بزغردات الأطفال وحلاوة ابتساماتهم فكانت لنا مع بسام ست بنات هن: سلوى، سهام، منتهى، شاهينة، ريما وحنان، عشنا في هناء وسعادة حتى حلّت سنة ١٩٨٢ لتضيف إلى حياتي حادثاً جللاً ومؤثراً وجرحاً نازفاً لا يندمل، فقد اختار الله إلى جواره زوجتي ورفيقة دربي، توفيت المرأة المثالية والمعاونة القوية على صعوبات الحياة ونوائب الدهر، كانت عروس أشعاري نقية ورعة صبورة ناضجة التفكير، تمتاز بالصمت في الوقت الذي ينبغي فيه الصمت ومتكلمة تنطق بالكلمة الفصل حيث ينبغي الكلام، كان عيشنا كالشمس طراوة عند الغروب وبعد الغروب صفاء...

حكاية حبي ما كانت إلاّ حباً عقلانياً ضميره الوفاء، لا حب قيس وليلى، مزيجاً من الجنون والبكاء، كنت أحترمها وأقدرها، كنت أتشاور معها وأقرأ لها ما أكتب، شاركتني في السراء والضراء.

❖ من امرأة قصائدك؟

❖❖ كتبت قصائد من وحي امرأة أمريكية، اسمها «مس كليفلند»، وهي مدرسة الأدب في جامعة «دانتون - تكساس»، وقالت عني بعدما قرأت لها إحدى قصائدي: «لقد ولد شاعر»، وفي القصيدة أقول لها - عام ١٩٢٦:

«حبيبتي لا تفتري عينيك الصافيتين
المتلألئتين كتوأمي نجم في كبد السماء
فإن الشمس تغرب ثم تشرق
إذن فلا تنسي
لقد سرى حبك في عروقي سماً... فسمم جسمي
وقادني إلى الخطيئة واضطرني أن أنفرد
عن العالم وألتجي إلى وحدتي وآلامي،
فكّرت فيك مراراً قرب الأقحوان المزهر،
ورددت تذكاراتي فإذا بي معها ذاهل
وأرسلت أشواقي إليك مع الأشعار المختفية
إذن فلا تنسي».

الشاعر حيدر في لقطة تذكارية مع اربع من بناته

أقدر المرأة المثقفة وأحترم السياسية وأتجنب المتسلطة

ومن يومها. لم أنقطع عن الشعر منذ بدأته في تكساس.

في لبنان كتبت قصائد من وحي كل امرأة لها جمالها ووزنها الذي يعنيني أنا ويلفتني.

❖ هل من امرأة خاصة جداً؟

❖❖ معلمتي الأولى «مس كليفلند» أحببتها، وتعلقت بها، طبعاً قبل أن أتعرف إلى زوجتي، فقد قررت الزواج بهذه المعلمة، وعندما فكّرت بعقلي تراجعت عن هذه الخطوة وأرسلت لها رسالة اعتذار.

❖ ماذا يعني لك الطيف الأنثوي؟

❖❖ دائماً الطيف الأنثوي يحضر منذ ربيع العمر... الآن أتعمق في الأشياء، أفكر في الفلسفة والحياة، الأشياء أصبحت أعمق في نظري من الماضي.

❖ يقال إن الوجود لا يكتمل إلا بحضور المرأة نصف المجتمع، ماذا تقول؟

❖❖ أجل.. أنا مع هذا القول، فالمرأة هي الوحي ونصف الحياة. تساعد الإنسان على إيجاد وحيه الشعري إضافة إلى الطبيعة، فهما معاً تشبهان بعضهما، فإذا كان منطق المرأة جميلاً فإنه يحمل مغزى خاصاً وميزة كونية حقيقية.

❖ هل تحب الاختلاف في المرأة؟

❖❖ لدي تقدير كلي نحو المرأة المثقفة الذكية المحافظة على مركزها الاجتماعي المحترمة لذاتها وكينونتها، خصوصاً تلك التي تأخذ الأمور بجدية وتكون واجهة لأمتها. لا تلك المرأة العبثية المتسلطة.

❖ وهل تعنيك المرأة السياسية؟ وما ردة فعلك تجاه المتسلطة؟

❖❖ المرأة العاملة في السياسة أحترم رأيها، إنما أفضل تلك التي تهتم بعائلتها وتربية أطفالها، أما المرأة المناضلة من أجل أمتها ووطنها فأجلها وأحترمها وهذه نادرة في بلادنا، أما المرأة المتسلطة أو المسترجلة فإني أتجنبها، وأنحاز إلى المرأة ذات الجمال الهادىء التي تحمل في أحاديثها النعومة والأنوثة، فالمرأة هي وجعنا الدائم، وعندما تسلك أموراً ملتوية وتنحاز عن طريق الصواب تسبب لي الوجع الدائم.

❖ كم من الأيام ضاعت من عمرك من أجل النساء؟

❖❖ يصعب عليّ الإجابة عن هذا السؤال لأني أصبحت في عمر متقدم (أصبحت على أعتاب المئة، مولود عام ١٩٠٥) وعمري هذا لا يسمح لي بفضح الأسرار، أحب أن أبقى في نظرهن الإنسان الشاعر المثقف الذي أحب المرأة وقدسها واحترمها وانحاز اليها في معاناتها وحضورها.

❖ هل الزواج في رأيك يقتل الحب؟

❖❖ الحب في رأيي أنواع: العاطفي الحقيقي، العقلاني والأناني، أنا انحزت إلى الحب العقلاني المليء بالفكر والجدية والامتلاء، لم أكن متهوراً في حياتي على صعيد الحب وكنت منحازاً إلى المرأة الأنثى، الحب لا يقتل الزواج، كما أن الزواج لا يقتل الحب إذا كان مبنياً على الصدق والتفاهم والصراحة.

❖ سؤال حشري جداً.. هل عشت شغف الخمسين أو كما يقال «جهلة الخمسين»؟

❖❖ عشت حياة حدية مليئة بالرصانة والوعي واحترام الذات والمرأة وكينونتها ومشاعرها، حتى أنني في قصائدي لم أخدش حياء الأنثى كما فعل بعض الشعراء ولم أتطرق إلى مواضيع حساسة في جسدها بعدما كبرت في السن، مازلت كما أنا لا «جهلة الخمسين» ولا التسعين، فالمرأة هي نظري ولدت من عيون الزمان وحطّت في داخلي كما حطّت الشمس في داخل الدنيا لتحييها.■